وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم التاريخ
الدراسات العليا / دكتوراه
المادة : استشراق

# الاستشراق وتاريخ العصر _ _الأموي

أ.د. مثنى عباس عواد

للعام الدراسي : ٢٠٢٥ / ٢٠٢٦

_الاستشراق وتاريخ العصر الأموي _

أشرنا في الفصل السابق الى الكتابات الاستشراقية في تاريخ صدر الاسلام ومن ضمنها العصر الاموي ولاحظنا أنها إما دراسات جاءت ضمن التاريخ الاسلامي عموماً أو دراسات مكرسة تقريباً عن العصر الاموي مثل كتاب السيادة العربية لفان فلوتن وكتاب الدولة العربية وسقوطها لفلها وزن أو بحوث طويلة لعهد من العهود مثل بحوث لا مانس عن معاوية ويزيد الأول وكبريللي عن هشام بن عبد الملك ودينت عن مروان بن محمد أو دراسات أخرى لظواهر حضارية أو سياسية وقعت في العصر الأموي مثل دراسات جولد تسيهر الذي تطرق فيها الى مركز الموالي وكذلك الشعوبية وبحوث عن الخراج والجزية ودور الموالي والتعامل مع أهل الذمة ونظم الادارة وغيرها.

إن الظاهرة التي نواجهها ونحن نستعرض أراء فئة من المستشرقين هو الخلط في تفسير الأحداث التاريخية وتسخيرها لنظريات ومفاهيم القرن العشرين أو لآراء مسبقة أحادية التفسير . ولعل أول ما يطالعنا رأي المستشرق الفرنسي كازانوفا حين يقول :

كانت نفسية الأمويين عموماً نفسية مجبولة على الطمع ومحاولة الاثراء الى حد الجشع وحب الفتح من أجل النهب والحرص على التسود للتمتع بالمذات الدنيوية!!

ولنترك المستشرق الهولندي سنوك هر خرونيه يرد على هذا الحكم العام في مناسبة أخرى حين كان يتكلم عن تاريخ الاسلام عموماً حيث قال : إن البحوث الحديثة التي صدرت عن تاريخ السيرة النبوية وصدر الاسلام تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالموت إذا سخرت لأية نظرية أو رأي مسبق

والمشكلة التي وقع فيها فئة من المستشرقين هي ـ وكما أوضحناها في كتابنا طبيعة الدعوة العباسية ـ عدم ادراكها للتطورات الجديدة سياسية واجتماعية واقتصادية التي حدثت خلال العصر الاموي . وعدم فهمها لبعض النصوص العربية فهماً صحيحاً يعتمد على تطور المصطلح التاريخي الذي يتبدل هو الآخر ويغير معناه ومفهومه بين فترة واخرى ضيقاً وإتساعاً . يقول غوستاف لوبون في هذا الشأن:
ما أكثر الألفاظ التي تغير معناها تغيراً عظيماً بين جيل وجيل ونحن لا نفهمها كما كانت في الماضي الا بعد جهد ودراسة طويلة...

وغالباً ما وقع بعض المستشرقين الذين عالجوا تاريخ الامويين في الخطأ بسبب التعميم فهم يعممون ظاهرة أو سياسة خليفة أو وال على كل العصر الأموي من هنا جاء تعميم ولهاوزن في حكمه حين زعم أن الأمويين ـ كلهم ـ لا يصلحون لقيادة الأمة المحمدية مفسراً قوله : (٤)

وكانت موضوعات الشكوى هي أن العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون ١ ٨٦ ، ٢٧٧ تجري في جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها على حين أن معظم جيوب عيرهم ببعى خالية وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذات السادة لا يعاقبون عليها لأن الحدود معطلة هذا التعميم الذي شمل كل عهود الخلفاء والولاة جائر لأن النصوص تثبت بأن الحدود لم تعطل في يوم في الأيام ، وأن الحدود متى عطلت هاج الناس وماجوا وهذا الوليد الثاني بن يزيد حينما كثرت الشائعات حوله من قبل خصومه من بني أمية والطامعين في خلافته من أنه كان فاسقاً ـ صحت التهمة أو لم تصح ـ خرج الناس عليه وقتلوه . وكيف يشمل هذا التعميم عبد الملك بن مروان

الذي قال عنه نافع مولى عبد الله بن عمر:

لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشذ تشميزاً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان

وفي رواية للأعشى أن فقهاء المدينة أربعة أحدهم عبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الامارة.

وهناك فئة من المستشرقين تلهث وراء المتشابه من الروايات التاريخية ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويل أحداث التاريخ الاسلامي وفق ما يروق لها ويخدم أهدافها .. وحين لا ينطلي نشويههم عن السيرة النبوية على أحد التواتر أخبارها واتفاق العديد من الروايات

حولها فإن العهد الأموي ليس كذلك . فقد أعانتهم روايات الشعوبية وغيرهم ينتقون منها ما يشاءون . خاصة إذا تذكرنا أن التاريخ الأموي كتب في زمن العباسيين حيث غير بعض الرواة الحقائق أو بدلوها وصوروها أو طمسوها وأضافوا إفتراءات جديدة الى سيرهم وا ٠ بازاتهم . واذا أخذنا كتاب المستشرق الالماني ولهاوزن (ت ١٩١٨م) الموسوم (الدولة العربية وسقوطها) ثم كتابه الثاني (الخوارج والشيعة نلاحظ أنه أشهر من تعمق بالتاريخ الالالي من اللامي حضرمي القرنين ١٩م و م ٢٠ . . ونقل ونقل ! إلينا المستشرق بيكر مقارنة طريفة بين

ولها وزن ولامنس فيما يتعلق بدراساتهم في تاريخ بني أمية ، ولاحظ بيكر : «أن لامنس رغم حذقه قد فشل فيما ٠ ج فيه ولهاوزن . فكتابات الاول مجرد نصوص مجموعة ومرتبة لا روح فيها أما كتاب ولها وزن فهو بناء ضخم ولانس يلوث شخصياته التي يتكلم عنها جزءاً جزءاً ولكنه يقع على اللون غير الصحيح . أما ولها وزن فهو ينحت شخصياته من الحجر الأصيل ومع ذلك فق وقع ولهاوزن في اخطاء عديدة.

وعموماً فإن تفسيرات فئة من المستشرقين لأحداث ومواقف من التاريخ الاموي تثير ملاحظات وتساؤلات معينة لدى الباحث المختص وكذلك لدى القارىء المولع بالتاريخ الاسلامي لأنها بلا شك غير مألوفة في الكتابات العربية عن الموضوع نفسه ، خاصة وأن بعضها محاط بمبالغات في التفسير حملت النص التاريخي للرواية اكثر بكثير مما يحتمله

إن ما كتبه المستشرقون عن التاريخ الاموي كثير وأن مبالغاتهم أو تحريفات فئة منهم كثيرة أيضاً ، على أننا سنقتصر على بعض المحاور الرئيسية ونعتبرها نماذج توضح منهجهم وتفسيرهم فيما ذهبوا اليهم . وهذه المحاور هي:

التأكيد على عامل واحد في التفسير.

النزعة العرقية (العنصرية) للخلافة الأموية.

الفتن والحروب الأهلية وشيوع العصبية القبلية.

الفتوحات والنزعة المادية لدى المقاتلة.

شخصيات منحرفة.

نشوء الفرق الإسلامية.

عزلة أهل الذمة.

مشكلة الموالي في المجتمع . وهذا المحور الأخير هو الأهم والأخطر لأنه عد من أسباب سقوط الأمويين.

وبقدر تعلق الأمر بالمحور الأول نلاحظ تأكيد ولهاوزن على العامل السياسي حيث كان يؤمن بأن للتاريخ السياسي قوة ديناميكية ذاتية تكفي لتفسير التطور ، ولكن التأكيد على عامل واحد على أهميته لم يعد من المسلمات التي يتفق عليها المؤرخون مع ولها وزن . أما الأب اليسوعي لامنس فقد كان العامل الطائفي المحرك الفعلي لدراساته مع تأكيده على الدافع الاقتصادي أيضاً . وهكذا بدا المستشرقون وكأنهم يختارون اللون الذي

ينسجم مع ثقافتهم وبيئتهم ليصبغوا به دراستهم عن الأمويين!!

وتأثر بعض المستشرقين بالنزعة العرقية التي شاعت في أوربا بتأثير كوبينو وغيره وكذلك بما شهدوه في تاريخهم من صراع دموي بين القوميات ففسروا التاريخ الاسلامي من خلال تجربتهم الذاتية . فذهب بعضهم الى القول بأن الدولة الأموية دولة عربية لا يعنيها الا أمر العرب في المجتمع الاسلامي ، أما غير العرب فهم مواطنون من الدرجة الثانية لا يشفع لهم حتى الاسلام يقول ولها وزن ودخل الاعاجم الاسلام ... وحققوا الحرية لأشخاصهم لكنهم لم يصلوا الى درجة التمتع بالحقوق المدنية كالمواطنين ولا بالحقوق العسكرية ومزاياها المادية .. ولم يكن الاسلام كافياً في ضمان المساواة لهم ، ذلك لأن الدولة الثيوقراطية الاسلامية كانت في واقع الأمر دولة عربية خالصة ، دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة «

ويؤكد ولها وزن رأيه في مكان آخر فيقول : وكان بنو أمية في الواقع يمثلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الاسلام.

وحين يتكلم بروكلمان عن الموالي في العراق يزعم أن العرب ينظرون اليهم كمواطنين من الدرجة الثانية حتى بعد إعتناقهم الاسلام!!

والقول هنا ذو شقين : الأول عروبية الدولة بإعتمادها على العرب والثاني سياستها العنصرية . أما إعتماد دولة الاسلام منذ نشأتها على العرب فأمر طبيعي لا غبار عليه لأنها نشأت بينهم وكانوا مادة الاسلام وعليهم إعتمد في الانتشار . ولا بد أن تمر فترة من الزمن قبل أن يندمج القادمون الجدد من غير العرب في المجتمع الجديد وحينذاك يشاركون العرب . فليس في الأمر تحاملاً أو عنصرية بل من الطبيعي أن يكون عصر الامويين عصر العرب أكثر من كونه عصر غيرهم بسبب سنة الزمن والتطور التاريخي للأمة الجديدة وكيانها السياسي.

ورغم أن الأمويين لم يتحاملوا على الموالي ولم تكن هناك سياسة رسمية تناهض غير العرب بل على العكس كما سنلاحظ ذلك حين نتكلم عن مشكلة الموالي .... نقول رغم ذلك فإن في يد الأمويين أكثر من تبرير لو إعتمدوا على العرب فالقوة العسكرية الضاربة لا زالت في المقاتلة العرب.

ثم كانت هناك عناصر من الموالي تناهض الدولة الاسلامية وتقوم مع كل فتنة تبغي تمزيق شمل الأمة فهل نتوقع من الدولة الا أن تقابل السلاح بالسلاح ، والتاريخ سجل بأن الموالي الذين لم يشاركوا في الفتنة كانت لهم من الحقوق مثل ما كان للعرب وامتزجوا بالعرب إمتزاجاً لا تفريق فيه . قال عبد الملك بن مروان للزهري وهو يحدثه:

من أين قدمت يا زهري ؟ قلت من مكة . قال : فمن يسود أهلها؟ قلت عطاء بن رباح قال : فمن العرب ام الموالي؟ قال قلت : من الموالي قال وبم سادهم؟ قلت بالديانة والرواية ، قال : ان اهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا ، قال : فمن يسود أهل اليمن قال طاوس بن كيسان قال : فمن العرب أن من الموالي؟ قال قلت من الموالي ، قال : وهم سادهم؟ قلت بما سادهم به عطاء ، قال : انه لينبغي ، قال : فمن يسود أهل مصر؟ قال قلت : يزيد بن حبيب ، قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت : من الموالي ، قال فمن يسود أهل الشام قال قلت مكحول قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت : من الموالي ، عبد نوبي اعتقته امرأة من هذيل ، قال فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت مىمون بن مهران قال فمن العرب أم من الموالي؟ قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود اهل خراسان؟ قال قلت : الضمان بن مزاحم قال : فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل البصرة قال قلت : الحسن بن أبي الحسن قال فمن العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي ، قال ويلك فمن يسود أهل الكوفة ؟ قال قلت ابراهيم النخعي (٢٠) قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت من العرب . قال ويلك يا زهري فرجت عني ... (٢١) وهكذا تبين هذه القصة بوضوح عدم غمط الموالي حقوقهم في السيادة ، وإن كانت رغبة الخليفة وامنياته مع العرب.

وفي المحور الثالث تصور فئة من المستشرقين العصر الاموي تصويراً دموياً وتصبغه بصبغة الحرب المستمرة متناسية أو مهملة ا ٠ بازات الأمويين الادارية والسياسية والحضارية . فعنوان عدة فصول في كتاب ولهاوزن يبدأ بالحرب الأهلية الأولى والثانية والثالثة . ولا يكتفي ولهاوزن بالحروب الأهلية بل يفصل في الصراع القبلي في بلاد الشام نفسها بين القيسية والكلبية فيقول:

على أن العواصف في العراق لم تسكن بإنتهاء الحرب التي استمرت سنين طوال مع ابن الزبير ... بل ملئت هذه العواصف كل مدة عبد الملك تقريباً وفي الشمال استمر صخب العداء بين قيس وكلب...

ويستمر ولهاوزن في صفحات عديدة يذكر فيها قيس وكلب أكثر من مائة مرة . وهكذ نلاحظ أن ولهاوزن يصف دولة الأموية بأنها عنصرية ثم يصف المسرح السياسي وقد اكتظ بالنزاع بين القبائل المتنافسة ثم لا يكتفي بذلك بل يفسر بعض الحركات بأنها اقليمية فحركة عبد الرحمن بن الأشعث صراع اقليمي بين العراق وبلاد الشام ... وهو بهذا يقفز من العنصرية العربية الى القبلية الى الاقليمية !! كل ذلك في دولة واحدة أما ما يخص المد الاسلامي الجديد المتمثل بالفتوحات الاسلامية في العصر الاموي فإن المستشرقين أو فئة كبيرة منهم لم يتعاملوا مع الفتوحات علي أساس الجهاد لنشر

يضاف إلى كل ما سبق، أنه يمكننا التكهن بالطرق التي وصلت بها المقتطفات المتعلقة بالمعتزلة إلى الأندلس. لكن لا توجد أية مؤشرات على الإطلاق لعدم وفرة فضلاً عن وجودها المصادر الأولية للمعتزلة بين المسلمين في الأندلس في هذه الفترة، ويبدو أن معرفة المعتزلة كانت في الغالب ذات طبيعة ثانوية: النقل الشفهي من نوع أو آخر، وربما في الواقع، من خلال الرحالة إلى الشرق أو إلى شمال أفريقيا."

وهي في هذا الطرح مسايرة للألماني البارع بحسب وصفها ـ جوزيف فان إس (Josef van Ess الذي يرى أن مدرسة المعتزلة، التي يعتقد أسين بلاثيوس أنه اكتشفها في الأندلس، كانت شبحًا فيما يتعلق بالتأثير اللاهوني ١٣.

## تعقيب

فيما يبدو لنا، أن أبرز ما حير أرباب الخطاب الاستشراقي إزاء هذه المسألة، اختفاء المصادر المعتزلية في ربوع الأندلس؛ فالهجمات التي استهدفت الممتلكات الثقافية للمعتزلة والعديد من المحاولات الفكرية العقلانية من المالكية ـ كانت كفيلة أن تعطي الانطباع بعدم وجود تلك التيارات في إسبانيا.

ونتفق مع الباحثة ربيكا توث (Rebecca Knuth) في أن حملات تدمير الكتب بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد شر محض، فهي عمليات موجهة نحو هدف مرسوم وخطط مسوغة بعناية في إطار الصراعات التي اندلعت بين رؤى متعارضة.

ولعل ذلك ما دفع سارة سترومسا إلى وصفها للوجود المعتزلي في الأندلس